دراسات

الشيخ مصطفى ملص

عضو تجمع العلماء المسلمين في لبنان

قضاء الإمام علي (ع) ..
أول محكمة تمييز في الإسلام

مكة والتنافس بين أهلها

قبض رسول الله (ص)، بعدَما أسس دولة الإسلام في الجزيرة العربية، حيث المجتمع مجتمع قبائل وعشائر، فكما كانت بقية أرض الجزيرة العربية كذلك كانت مكة والمدينة وسواهما من الحواضر، قبائل وعشائر وعائلات عموماً متنافسة وأحياناً متحالفة، تبعاً لتقاطع المصالح او تعارضها.

وفي مكة أم القرى أي القرية الرئيسية، التي توازي في عرفنا اليوم العاصمة، حيث بالإضافة الى البيت الحرام، القرار الأهم والاقتصاد والسياسة وغير ذلك مما تتميز به العواصم عن سواها من البلدان، كانت قريش هي القبيلة المسيطرة التي لا تنازع بما تتمتع به من مركز نفوذ وإدارة للحرم، وما يعنيه من مكانة دينية عند العرب، وأيضاً ما تتمتع به من سيطرة على تجارة الجزيرة العربية والروابط الاقتصادية مع كل من الشام واليمن وفارس والروم.

غير أن قريش القبيلة الواحدة كانت مقسمة الى عائلات وبطون وأفخاذ، فعند ظهور الاسلام وإظهار النبي (ص) لدعوته كان هناك هاشم وبنو عبد شمس وبنو عدي وبنو تيم وغيرهم، وكان هناك تنافس وسباق بين أهم هذه البطون والأفخاذ بني هاشم وبني عبد شمس. حيث كان كل طرف يسعى لأن تكون له الكلمة الأولى والامتياز الأهم في مكة.

ومما يظهر من خلال سِيَرْ العائلات في مكة أن بني عبد شمس كانوا يصارعون للتقدم على بني هاشم، الذين كما يبدو كانت الزعامة تنقاد اليهم انقياداً، لصفات تميزوا بها عن أقرانهم ولتاريخ آبائهم الموصوف بالجود والكرم والحمية والنجدة.

وظهر النبي محمد (ص) من بني هاشم، ودعا الى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام وتوحيد القبائل العربية في أمة واحدة تحمل الإسلام الى بقية العالم لتتكون بعد ذلك أمة الإسلام، التي لا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فكل الناس سواسية، وكل الناس عباد الله، وهذا بحد ذاته شكل نقضاً لما هو متعارف عليه في مكة آنئذ؛ حيث كان الناس قبائل متفاوتة وأحرار وموالي وسادة وعبيد. مما أدى الى قيام ردة فعل شديدة من قبل الذين رفضوا دعوة النبي (ص) لما اعتبروه من انها تهدف الى اضعافهم والقضاء على مصالحهم وسيادتهم على بقية القبائل في الجزيرة العربية.

وكان من نتيجة هذا التناقض بين دعوة الإسلام ومصالح المشركين ورفض المجتمع القرشي بمعظمه للدعوة الجديدة، حيث لم يؤمن إلا نفر قليل من الناس خلال ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة في مكة، حصول الهجرة الى المدينة ـ يثرب التي رغم تناقضات أهلها فيما بينهم، ووجود أكثر من دين فيها استطاعت أن تحتضن دعوة الاسلام، وأن تقيم أول مجتمع اسلامي تحول الى دولة منظمة بمقاييس ذلك العصر. ثم عاد الرسول (ص) الى مكة فاتحاً بعد سلسلة من المعارك والمواجهات انتهت بقتل معظم من سُمّوا بالصناديد؛ وهم كبار الرجال او القادة المشركين. ودخل المسلمون مكة فاتحين، وأظهر النبي (ص) تسامحاً كبيراً؛ إذ عفى عن معظم الذين حاربوه وآذوه وأخرجوه من بلده، إلا نفراً قليلاً أمر بالقضاء عليهم نظراً لما ارتكبوه من جرائم تشبه في عصرنا الحاضر ما يسمى بجرائم الحرب.

دخل جميع أهل مكة في الاسلام؛ حيث وجدوا أنه لا مناص من قبول الأمر

الواقع، وانضموا الى صفوف المسلمين. ولكن وكما يبدو فإن ما كان من تنافس قبل الإسلام لم ينته بدخول الجميع في الدين الجديد، إذ اعتبر البعض أن بني هاشم قد انتصروا في المواجهة وتمكنوا من إخضاع خصومهم، وهذا يعني أن هؤلاء الخصوم او بعضهم لم يفهموا روح الدين الإسلامي وحقيقة الدعوة الجديدة، وراحوا يتحينون الفرص من أجل استعادة مكانتهم وإزاحة منافسيهم.

إن هذه الصورة بالتأكيد تنطبق على البعض ولا تنطبق على الجميع، حيث أن أغلبية الناس من أهل مكة قد أسلموا وحَحسُنَ إسلامهم. ولكن بعض التقاليد والأعراف ظلت كامنة الى حد ما في بعض النفوس، مما أثر فيما بعد على العلاقة مع أقرباء النبي (ص) وذريته من بعده.

مكانة النبي (ص)

حدد القرآن الكريم المكانة العظيمة للنبي محمد (ص)، فهو القدوة والأسوة والمثل الذي ينبغي اتباعه. وهو صاحب القضاء النافذ والإرادة العليا، **«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيداً»**[1]. ومن يرد قضاء النبي (ص) فهو كافر.

ولعل الميزة الأهم التي جعلها الاسلام للنبي (ص) هي وجوب المحبة من قبل كل مؤمن ومؤمنة: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه». وهذه المحبة من الأمور الميسرة، فالناس مفطورون على محبة ما يحقق لهم ذاتهم ومصالحهم وما يريحهم وعلى محبة من يحبهم ويسعى في سبيل أمنهم وراحتهم وضمان مستقبلهم.

وإذا نظرنا الى شخصية النبي الأكرم محمد (ص) نجده من خلال نفسيته وسيرته وأعماله وأقواله وعلاقاته بالآخرين، لا يحمل أي صفة من الصفات المنفِّرة التي ينفر الناس منها بالفطرة، بل نراه يتمتع بكل الصفات التي تحببه

الى الناس وتقربه الى القلوب، وتجعل المحيطين به يتعلقون به أشد التعلق، بل ويؤثرونه حتى على أنفسهم وأبنائهم وآبائهم.

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره».(٢)

وقد كان (ص) كما وصفه القرآن الكريم رقيقاً رحيماً بالناس لا يحب ما يشقيهم،

«ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك».(٣)

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».(٤)

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم».(٥)

وهذه الصفات يذكرها القرآن الكريم أمام المؤمن بنبوة محمد (ص) وأمام المنكر لها. ولو كانت غير موجودة فيه لقام من ينكر نبوته، مكذباً لذلك، ولكنهم لم يكذبوا هذه الصفات، وإنما رموه مرة بالجنون ومرة بالسحر، وغير ذلك من الأمور التي لا مقاييس محددة لها.

فحب النبي محمد (ص) او حب صفاته من الأمور الفطرية التي فطر عليها الإنسان السليم العقل والحواس، والتي لا يمكن لإنسان أن يُصرف عنها إلا بحقد قديم دفين، او عقد نفسية او بمرض في النفوس او القلوب او الصدور.

لقد أحبّ المسلمون رسولهم ورضخوا لأمره واستجابوا له، ومع ذلك لم يكن (ص) ليستغل ذلك في جلب منفعة لنفسه او لأحد أقربائه مهما كانت درجة قرابتهم منه، بل لم يكن يميز نفسه عن أحد منهم بأي متاع او مكسب او دنيا، بل كان يجافي الدنيا ويأمر أهله بمجافاتها. حتى أن ابنته الحبيبة الى قلبه فاطمة الزهراء (رض) تطلب منه أن يأتيها بمن يخدمها ليخفف عنها بعضاً من تعبها، فإذا به يأمرها بالصبر والذكر والتحمل.

وفي بعض المرات حينما كان يتصرف عليه الصلاة والسلام تصرفاً تخفى

أبعاده على المحيطين به، فيبدون اعتراضاً او استفهاماً او استغراباً. كان جوابه لهم (ص) ينزل على قلوبهم برداً وسلاماً ويزدادون له حباً وبه تعلقاً. كما حصل مع الأنصار بعد غزوة حنين؛ حينما أعطى الغنائم للمكيين حديثي الاسلام، ولم يعط الانصار أصحاب الفضل والسبق، فوجدوا في أنفسهم عليه، فلما بيّن لهم الأمر، قالوا رضينا برسول الله قَسَماً.

ولقد بيّن لنا رب العزّة جلّ وعزّ أن حبّ الله للناس مرتبط بحبهم لرسوله (ص) وأتباعهم له فقال: «**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله**».[٦]

وهكذا تكون العلاقة جدلية بين حب الناس لله وحبهم لرسوله وحب الله لهم، فبدون ذلك الحب ليس هناك إيمان وإذا نقض من أي طرف من أطرافه سقطت المعادلة كلها.

حب آل محمد (ص)

وردت عن النبي (ص) أحاديث كثيرة تفيد وجوب حب آل بيته وتقديرهم واحترامهم. ولقد ذكر القرآن الكريم ان مودة قرابة النبي هي البدل الذي يطلبه عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: «**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**».[٧]

أما الأحاديث فمنها ما أورده الطبري «محب الدين» في كتابه ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى.

١ـ عن عبدالعزيز بإسناده أن النبي (ص) قال: «من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عن الله عهداً» أخرجه أبو سعيد والملا.

٢ـ وعنه ايضاً قال: قال رسول الله (ص): «استوصوا بأهل بيتي خيراً فإني أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصمه أخصمه ومن أخصمه دخل النار»[٨]، أخرجه أبو سعيد والملا في سيرته.

٣ـعن ابن عباس (رض) قال: قال رسول الله (ص): «لو أن رجلاً صف بين الركن والمقام، فصلى وصام لقي الله مبغضاً لأهل بيت محمد دخل النار».[٩] أخرجه ابن السري.

٤ـ عن أبي سعيد (رض) قال: قال رسول الله (ص): «من أبغض أهل البيت فهو منافق». أخرجه أحمد في المناقب.

٥ـ عن جابر بن عبدالله (رض) قال: قال رسول الله (ص): «لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن تقي ولا يبغضنا إلا منافق شقي». أخرجه الملا.

٦ـ عن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص): «يردُ الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمتي كهاتين السبابتين»[١٠] أخرجه الملا. أ. هـ

هذه النصوص التي أوردها محب الدين الطبري في كتابه الآنف الذكر ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى. تدل على المكانة التي يجب أن تفرد لآل البيت (ع) في قلب كل مؤمن من الحب والتقدير والاحترام.

كيف كان التعاطي مع أهل البيت؟

كان أهل بيت النبي (ص) محط احترام ومحبة وتقدير عند أصحاب النبي (ص). ومن خلال الاطلاع على سيرة هؤلاء الرجال أنهم كانوا يكنون لبعضهم بعضاً كل الحب والتقدير والاحترام، وهذا لا يعني عدم الاختلاف حول العديد من المسائل. ووجدت أن مكانة علي بن أبي طالب (ع) هي مكانة الأعلم فيما بينهم، وأنه من دون الناس كان يُرجَعُ اليه في كل أمر مشكل، وكل قضية ملتبسة بعد رسول الله (ص)، بل انه الوحيد الذي نقل انه كان يملك صلاحية نقض أحكام الخلفاء الذين سبقوه، بما يملكه من علم وما يقدم من حجة وما يزيل من التباس. وبالمقارنة مع ما هو كائن اليوم فقد كان علي بن أبي طالب (ع) قبل توليه الخلافة يمثل ما تمثله اليوم **محاكم التمييز التي تملك الحق في إبرام الأحكام ونقضها.**

مكانة الامام علي (ع) من رسول الله (ص)

دلت الأحاديث على مكانة أمير المؤمنين العظيمة عند رسول الله (ص). فقد أخرج الترمذي في صحيحه في أبواب المناقب في مناقب علي بن أبي

طالب (ع) جملة من الأحاديث يستفاد منها مكانته من النبي (ص). فعن سعد بن أبي وقاص بإسناده أن النبي (ص) قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[١١]. قال هذا حديث حسن صحيح.

وفي حديث طويل أخرجه الترمذي في صحيحه أيضاً عن عمران بن حصين قال: «بعث رسول الله (ص) جيشاً واستعمل عليهم علي بن أبي طالب، فمضى في السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله (ص) فقالوا إذا لقينا رسول الله (ص) أخبرناه بما صنع علي، وكان المسلمون إذا رجعوا من السفر بدأوا برسول الله (ص)، فسلموا عليه ثم انصرفوا الى رحالهم، فلما قدمت السرية سلموا على النبي (ص)، فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله ألمْ ترَ الى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا، فأعرض عنه رسول الله (ص)، ثم قام الثاني فقال مثل مقالته فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال مثلما قالوا، فأقبل رسول الله (ص) والغضب يعرف في وجهه فقال: ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي».[١٢]

وله ايضاً من حديث أبي الطفيل عن النبي (ص) قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

وجاء في صحيح مسلم في باب «من فضائل علي بن أبي طالب (ع)، مايلي: «... عن سهل بن سعد قال: إن رسول الله (ص) قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها، قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق رسول الله (ص) في عينيه ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: أنفذ على رسلك حتى تنزل

ساحتهم، ثم ادعهم الى الاسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم».[١٣]

وفي ذخائر العقبى ذكر الطبري حديثاً عن عائشة (رض) أنها سئلت: أي الناس كان أحب الى رسول الله (ص)؟، قالت: فاطمة، فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها إن كان ما علمت صوّاماً قوّاماً؟.[١٤] أخرجه الترمذي.

ونختم في هذا العنوان بمؤاخاة النبي بين المهاجرين والأنصار ومؤاخاته مع علي (رض). ففي ذخائر العقبى عن ابن عمر (رض) قال: آخى رسول الله (ص) بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد. قال له رسول الله (ص): «أنت أخي في الدنيا والآخرة».[١٥]

وهكذا نجد مكانة علي عند رسول الله (ص) هي المكانة الأولى بين الرجال، حباً واختصاصاً بالفضل والتقريب.

مكانة الامام علي العلمية

ذكر صاحب ذخائر العقبى أنه لم يكن أحد من الصحابة يقول: سلوني غيره. وروي عن سعيد بن المسيب قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله يقول سلوني إلاّ عليّاً. أخرجه أحمد في المناقب والبغوي في المعجم وأبو عمر ولفظه: ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب (ع).

وعن ابي الطفيل قال: شهدت علياً يقول سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل ام في جبل. أخرجه أبو عمر[١٦]. أ. هـ.

إن تصرف أمير المؤمنين هذا هو تصرف العالم الواثق من علمه، المستشعر لعظم المسؤولية في تبليغ هذا العلم الذي استودعه، لذلك تراه يحث الناس على السؤال لأن العلم بين أمرين بين السؤال والجواب. لكن ما هو مستند هذه

الثقة العظيمة التي تمتع بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)؟

إن مصدر هذه الثقة هو رسول الله (ص)، الذي قال فيما رواه الترمذي بسنده عن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص): «أنا دار الحكمة وعلي بابها».(١٧)

والذي قال لابنته فاطمة (رض) عندما دخل عليها وهي شاكية فقال: كيف تجدينك؟ قالت: لقد اشتدت فاقتي وطال سقمي. قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: وجدت بخط أبي في هذا الحديث قال: أوما ترضين أني زوجتك أكرمهم سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً.(١٨)

وهذه المكانة العلمية لم يكن أحد ينازعه إياها او يدعي أنه أكثر منه علماً ولا مساوياً له، فقد سلّم له الجميع، حتى أن أحدهم كان إذا سئل عن مسألة أشكلت عليه طلب من السائل أن يسأل عنها علي بن أبي طالب (ع).

فعندما سئلت عائشة عن المسح على الخفين قالت للسائل: إئت علياً فاسأله. «أخرجه مسلم».(١٩)

وهذا ابن عباس حبر الأمة (رض) يقول: والله لقد أعطي علي تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر «أخرجه أبو عمر».

وأما خير شهادة في أعلمية علي بن أبي طالب فهي شهادة رسول الله (ص) ما رواه علي (ع)، قال: قال رسول الله (ص): «ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً». أخرجه الرازي.(٢٠)

إن هذه المكانة قد أهّلت علياً (ع) ليتبوأ دور العالم والفقيه الذي يرجع اليه في كل أمر، بل والذي يملك حق المبادرة لتصويب الأحكام وبيان الحقائق، وتفنيد الحجج.

ولكننا مع ذلك نلاحظ أنه رغم تمتعه بكل تلك المميزات؛ فإنه لم يكن الشخص المرغوب فيه عند البعض، وكان يستبعد وينتقد من قبل أناس لا يساوونه قدراً ولا علماً ولا نسباً. وقد شعر أن أصحابه قلة قليلة فأوثر عنه قوله الشهير: «ما ترك لي الحق صاحباً».

ولئن انطلقت الأقوال والإشاعات والمؤامرات ضد علي (ع) فإنه كان له في رسول الله (ص) السند والمحامي والمدافع الذي لا شك لحظة واحدة في أن علياً هو أعلم الناس وأصدق الناس وأتقى الناس. لذلك كان قوله لمن اشتكوا إليه عمل علي: «ماذا تريدون من علي، ماذا تريدون من علي ماذا تريدون من علي إن علياً مني وأنه منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي».[٢١]

وكان يؤكد على حكمته: «أنا دار الحكمة وعلي بابها»[٢٢]، بل انه قال فيه ما لم يقله في سواه فعن ذر بن حبيش عن علي قال: لقد عهد إليَّ النبي الأمي (ص) أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق...».[٢٣]

إن الصراع الذي كان سائداً في مكة قبل الاسلام لم ينته تماماً مع مجيء الاسلام ودخول الناس فيه، فقد لعبت القبلية والعشائرية دورها في عدم إنزال علي بن أبي طالب المنزلة التي يستحقها عند البعض. فقد صار علي (ع) رمزاً لبني هاشم وهو المقدم فيهم والمبرز علماً وورعاً والمؤهل للقيادة بعد رسول الله (ص) وكان هناك من يطمح ليستولي على هذه القيادة وينتزعها من بني هاشم، فعمد الى معاداة علي والكيد له.

ولعل السبب الأهم في الجفاء وحتى البغض الذي لاقاه علي (ع) هو بلاؤه في الحروب مع رسول الله (ص) وشدته على القوم، فكل هذه العوامل ساهمت في ذلك الجو من الإعراض الذي قوبل به علي (ع)، وهو في كل ذلك مظلوم، فقد وضع الإسلام علياً في مكانة عظيمة، وكان همه الإسلام، وكان هم أعدائه الدنيا ومتاعها.

ولعل القول الذي قاله أبو سفيان في مجلس عثمان بن عفان (رض) عندما آلت اليه الخلافة عندما سألهم أفيكم أحد من غيركم؟ «أي من غير بني أمية؟» فقالوا: لا. فقال تمسكوا بها وتلقفوها كالكرة...! إن مثل هذا الكلام يدل دلالة واضحة على ما أشرنا اليه.

ولكن رغم كل ذلك فقد كان الناس محتاجين الى علم علي وفقهه وحكمته وقضائه، ولم يكن هو يحتاج لأحد بعد رسول الله (ص).

قضاء الإمام علي في زمن النبي (ص)

القضاء بالإضافة الى أنه علم فهو موهبة من الله عز وجل، والمواهب خصائص يختص بها الله من يشاء من عباده. والعلم يغذي الموهبة ويعطيها أبعاداً واسعة فكيف إذا اجتمع العلم والتقوى ومخافة الله عز وجل مع الموهبة، وكيف إذا اقترن كل ذلك بالمهابة، لقد اجتمعت كل تلك الصفات في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فكان أعظم قاضٍ عرفه الاسلام بعد رسول الله (ص).

وقد أدرك رسول الله (ص) شخصية علي (ع) فولاّه القضاء وهو حديث السن؛ فقد ورد عنه أنه قال: لما بعثني رسول الله الى اليمن قاضياً وأنا حديث السن فقلت: يا رسول الله تبعثني الى قوم تكون بينهم أحداث ولا علم لي بالقضاء، قال: إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك. قال: فما شككت في قضاء بين اثنين».خرجه أحمد.(٢٤)

وقرر النبي (ص) أن علياً (ع) هو أقضى هذه الأمة، فهو أقضى الأولين والآخرين فيها، ولا يستطيع أحد أن ينازعه زعامة القضاء والبراعة فيه، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فعن أنس (رض) أن النبي (ص) قال: «أقضى أمتي علي». أخرجه البغوي في المصابيح الحسان.(٢٥)

وعن عمر (رض) قال: «أقضانا علي». أخرجه السلفي.

وعن معاذ بن جبل (رض) قال: قال رسول الله (ص) لعلي (ع): «تخصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية وأعظمهم عند الله مِزيَّةً» أخرجه الحاكم.(٢٦)

فهل بعد هذا البيان النبوي قول لقائل؟ وهل بعد هذه الشهادة شهادة أعظم منها؟ وقد جاءت الوقائع التي قضى فيها علي بن أبي طالب بقضائه تدل على دقة التقدير النبوي لهذه الشخصية العظيمة في مجال القضاء. كما في غيره من المجالات التي زكّاه فيها (ص).

ونذكر على سبيل المثال بعضاً من قضائه (ع) زمن النبي (ص):

عن إبراهيم بن هاشم النوفلي عن السكوني، عن أبي عبدالله (ع) قال: بعث النبي (ص) علياً الى اليمن وإذا زبية[٢٧] قد وقع فيها الأسد، فأصبح الناس ينظرون اليه ويتزاحمون ويتدافعون حول الزبية، فسقط رجل في الزبية، وتعلق بالذي يليه، وتعلق الآخر بالآخر، حتى وقع فيها أربعة، فجرحهم الأسد، وتناول رجل الأسد بحربة فقتله، فأُخرج القوم موتى، فانطلقت القبائل الى قبيلة الرجل الأول الذي سقط وتعلق فوقه ثلاثة، فقالوا لهم: أدّوا دية الثلاثة الذين أهلكهم صاحبكم. فلولا هو ما سقطوا في الزبية، فقال أهل الأول: إنما تعلق صاحبنا بواحد فنحن نؤدي ديته، واختلفوا حتى أرادوا القتال، فصرخ رجل منهم أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» (ع) وهو منهم غير بعيد فأتاهم ولامهم، وأظهر موجدة. وقال لهم: لا تقتلوا أنفسكم ورسول الله حي، وأنا بين اظهركم. فإنكم تقتلون أكثر مما تختلفون فيه، فلما سمعوا ذلك منه استقاموا، فقال: إني قاضٍ فيكم قضاءً فإن رضيتموه فهو نافذ، وإلا فهو حاجز بينكم، من جاوزه فلا حق له حتى تلقوا رسول الله (ص)، فيكون هو أحق بالقضاء مني، فاصطلحوا على ذلك، فأمرهم أن يجمعوا دية تامة من القبائل الذين شهدوا الزبية، ونصف دية، وثلث دية، وربع دية، فأعطى أهل الأول ربع دية من أجل أنه هلك فوقه ثلاثة، وأعطى الذي يليه ثلث دية من أجل أنه هلك فوقه اثنان، وأعطى الثالث نصف الدية من أجل أنه هلك فوقه واحد، وأعطى الرابع الدية تامة لأنه لم يهلك فوقه أحد، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فقال لهم علي: تمسكوا بقضائي الى أن تأتوا رسول الله (ص) فيكون القاضي فيما بينكم، فوافوا رسول الله (ص) بالموقف فثاروا إليه فحدثوه وحدثهم، فاحتبى ببرد عليه ثم قال: أنا اقضي بينكم ان شاء الله، فناداه رجل من القوم: إن علي بن أبي طالب قد قضى بيننا، فقال النبي (ص): ما هو؟ فأخبروه، فقال هو كما قضى فرضوا بذلك.[٢٨]

كما روي أن رسول الله (ص) كان جالساً مع جماعة من أصحابه فجاءه

خصمان، فقال أحدهما: يا رسول الله إن لي حماراً وإن لهذا بقرة، وإن بقرته قتلت حماري. فبدأ رجل من الحاضرين فقال: لا ضمان على البهائم. فقال رسول الله (ص): إقضِ بينهما يا علي. فقال علي لهما: أكانا مرسلين ام مشدودين أم احدهما مشدود والآخر مرسلاً؟ فقال: كان الحمار مشدوداً والبقرة مرسلة وصاحبها معها، فقال علي: على صاحب البقرة ضمان الحمار.

فأقر رسول الله (ص) حكمه، وأمضى قضاءه.[٢٩]

درجة قضاء علي (ع) أيام النبي (ص)

عُيّن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في منصب القضاء زمن النبي (ص)، وكان عليه السلام يدرك أن فصله في أية قضية من القضايا لا يكون مُبرَماً، لهذا نراه عندما يقضي في مسألة فإنه كان يخبر أطرافها بأن بإمكانهم في حال عدم قبولهم بالحكم الذي يصدره، مراجعة النبي (ص) ليتولى فصل القضية بنفسه.

فكأن علياً في قضائه زمن النبي (ص) كان يشبه ما يسمى اليوم بمحكمة البداية التي تقبل أحكامها او القضايا المعروضة أمامها النظر من قبل محكمة عُلْيا.

فقد رأيناه عندما تصدى لقضية الأربعة الذين ماتوا في مسألة زبية الأسد في اليمن يعرض عليهم أن يقضي بينهم بقضائه، فإن اعجبهم ما قضى به انفذوه وإن لم يعجبهم كان هذا القضاء حاجزاً بينهم حتى يرجعوا الى رسول الله (ص) فيقضي بينهم بقضائه الفصل والنهائي الذي لا يقبل المراجعة أبداً.

وكان بعض الناس لا يقبل بما يقضي به علي (ع)، ويظن أنه قد جار عليه بقضائه فكانوا يرفعون الأمر الى رسول الله (ص) فماذا كان موقف النبي من أقضية علي رضي الله عنه؟!

من استقراء جميع القضايا التي قضى فيها علي (ع) بحكمه وعرضها على رسول الله (ص) لا نجد قضية واحدة رد فيها حكم علي (ع).

وفي مسألة القوم الذين وقع عليهم الحائط فقتلهم، وكان فيهم امرأة مملوكة وأخرى حرة، وللحرة طفل من حر، وللمملوكة طفل من مملوك، ولم يعرف المملوك من الحر فقرع بينهما، وحكم بالحرية لمن خرج عليها سهمها، وبالرقية لمن خرج عليها سهمها ثم أعتقه، وجعل مولاه مولاه «كذا» وحكم به في ميراثهما بالحكم في الحر ومولاه. فأمضى رسول الله (ص) هذا القضاء وصوبه «أي قال بصوابه».[٣٠]

في قضية الرجل الذي نفحه الفرس فمات. وهكذا نجد أن دعاء النبي (ص): اللهم اهدِ قلبهَ وسدّد لسانه قد أتى ثمرته اطمئناناً من قبل علي الذي روى الحديث فقال: «ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين. فلم يخطئ علي (ع) في قضاء قضاه. وكأن القضاء كان عنده سليقة».!

قضاء الامام علي (ع) في عهد الخلفاء

بوفاة النبي (ص) والتحاقه بالرفيق الأعلى في الجنة توقف وحي السماء، وصار العلم علماً بالكتاب والسنّة، والنبي (ص) قال لعلي (ع): «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي» فلا نبوة بعد رسول الله (ص) فهو خاتم النبيين. فمن كان أعلم الناس بالكتاب والسنّة من بين أصحاب محمد (ص)؟ انه بدون منازع علي بن أبي طالب (ع). وهي منزلة أخبر عنها رسول الله (ص): «أنا دار الحكمة وعلي بابها»، وقال لابنته فاطمة كما مرّ معنا أنه زوَّجها بأعلمهم. وقد ادعى علي هذه المنزلة، فكان يقول سلوني.. سلوني، ورغم كثرة أعدائه ومبغضيه فلم يتجرأ أحد على الاعتراض على دعواه او الرد عليها، حتى أن خصومه المباشرين كانوا إذا سئلوا عن مسائل وعجزوا عن الجواب كانوا يحيلون السائل على علي (ع) فكان يجد الجواب الشافي.

بالإضافة الى ذلك فقد اعترف الجميع بأن علياً (ع) أقضى الناس بعد رسول الله (ص) فكان عمر بن الخطاب يقول: «أقضانا علي».[٣١]

ولقد كان قضاؤه في عهد أبي بكر يسيراً فلم تنقل الروايات إلا النزر اليسير، وكذلك في عهد عثمان بن عفان. ويبدو أن عهد عمر بن الخطاب (ر‌ه) قد حفل بالدور الأكبر لعلي (ع). لذلك سنركز على دوره القضائي في عهد عمر بن الخطاب (ر‌ه).

قضاء علي في عهد عمر

كنا قد أشرنا الى أن علي بن أبي طالب (ع) يتمتع بشخصية القاضي بكل أبعادها، وهو ما لم يكن موجوداً عند غيره، ومنهم عمر بن الخطاب (ر‌ه). وكان عمر يصدر أحكاماً على المتخاصمين فيها خلل كبير يدل على عدم دراية إما بالأصول؛ أصول القاضي، وإما بالنصوص التي يجب أن تطبق على القضية. وهذا لا ينتقص من شخصية عمر ولا من مكانته فليس مطلوباً من كل إنسان أن يكون بارعاً في كل شيء وماهراً في الأمور جميعها وملكات الأفراد تختلف من شخص لآخر.

فكانت أقضية عمر هذه إذا وصلت الى علي بن أبي طالب (ع) ردّها، وبيّن وجوه الخلل فيها وأصدر فيها الحكم الصحيح المعلل. لأن علياً كان يعلل أحكامه. أي أنه يبين الوجوه التي استند إليها، والأسباب، والنصوص.

وكان عمر يظهر دائماً إعجابه بما يقضي به علي (ع)، ويعترف بأعلميته وأهليته للقضاء، واشتهر عنه قوله «لا أبقاني الله لمعضلة لم يكن لها أبو الحسن»[٣٢]. وكان ينفذ أحكامه دون تردد.

وكان في بعض الأحيان تعرض عليه قضايا فيمتنع عن النظر فيها ويرفعها الى علي ليرى فيها رأيه. لقد نقل صاحب كتاب الأعيان عن القاضي نعمان في شرح الأخبار عن أبي عثمان النهدي قال: جاء رجل الى عمر فقال إني طلقت امرأتي في الشرك تطليقة وفي الإسلام تطليقتين فماترى؟ فسكت عمر فقال له الرجل ما تقول. قال كما أنت حتى يجيء علي بن أبي طالب. فجاء علي فسأله. فقال: هدم الاسلام ما قبله هي عندك على واحدة.[٣٣]

وذكر الطبري في ذخائر العقبى عن محمد بن الزبير قال: دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بشيخ قد التوتْ ترقوتاه من الكبر، فقلت يا شيخ من أدركت؟ قال عمر (ره) فقلت فما غزوتَ معه؟ قال: غزوتُ اليرموك. قلت فحدثني شيئاً سمعته. قال: خرجت مع فتية حجاجاً فأصبنا بيض نعام وقد أحرمنا، فلما قضينا مناسكنا ذكرنا ذلك لأمير المؤمنين عمر، فأدبر وقال اتبعوني حتى انتهى الى حجر رسول الله (ص) فضرب حجرة منها فأجابته امرأة فقال: أتم أبو حسن قالت لا. فمر في المقتاة فأدبر وقال اتبعوني حتى انتهى اليه، وهو يسوي التراب بيده، فقال: مرحباً يا أمير المؤمنين، فقال إن هؤلاء أصابوا بيض نعام وهم محرمون، فقال ألا أرسلت إليَّ. قال أنا أحق بإتيانك. قال: **يضربون الفحل قلائص أبكاراً بعدد البيض فما نتج منها أهدوه**. قال عمر: فإن الإبل تخدج. قال علي والبيض يمرض. فلما أدبر قال عمر: اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن الى جنبي.(٣٤)

وننقل جملة من المسائل التي عرضت على عمر (رض) فقضى ببعضها بحكمه ثم نقض علي (رضي) الحكم او ردّها عمر مباشرة الى علي (ع) ليحكم فيها او اختُلف فيها وقضى فيها علي بقضائه. وهي كما نقلها صاحب كتاب أعيان الشيعة السيد محسن الأمين في كتابه:

١ـ في مناقب ابن شهر اشوب: أنه أُتي الى عمر برجل وامرأة قال لها الرجل يا زانية فقالت: أنت أزنى مني فأمر بأن يجلدا، فقال علي: لا تعجلوا. على المرأة حدان لغربتها لأنها قذفته وحد لإقرارها على نفسها، وليس على الرجل شيء.

٢ـ عن الرضا عليه السلام: «قضى أمير المؤمنين عليه السلام في محصنة فجر بها غلام صغير فأمر عمر أن ترجم فقال علي: لا يجب عليها الرجم إنما يجب عليها الحد لأن الذي فجر بها ليس بمدرك».

٣ـ ... أمر عمر برجل يمني محصن فجر بالمدينة ان يرجم، فقال علي: لا يجب عليه الرجم لأنه غائب عن أهله، إنما يجب عليه الحد فقال عمر: لا

أبقاني الله لمعضلة لم يكن لها أبو الحسن.

٤ـ ما في عجائب أحكامه ... عن أبي عبدالله عليه السلام: أتي عمر بامرأة تعلقت بأنصاري تهواه فلم تقدر على حيلة، فصبت بياض البيض على ثيابها وجسمها ثم جاءت الى عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إن هذا أخذني في موضع كذا ففضحني، فهم عمر أن يعاقب الأنصاري فقال: يا أمير المؤمنين تثبت في أمري فقال عمر: يا أبا الحسن ماترى؟ فنظر علي الى بياض البيض على ثوبها فقال: ائتوني بماء مغلي فأمر بصبه على ذلك البياض، فإذا هو بياض البيض وأقرت المرأة بذلك.(٣٥)

ومن هذه الأقضية ما أورده محب الدين الطبري في كتاب ذخائر العقبى عن عبدالله بن الحسن قال: دخل علي على عمر وإذا امرأة حبلى تقاد لترجم، قال: ما شأن هذه قالت يذهبون بي يرجموني فقال أمير المؤمنين: لأي شي ترجم؟ إن كان لك سلطان عليها فمالك سلطان على ما في بطنها، فقال عمر: كل أحد أفقه مني ثلاث مرات. فضمنها علي حتى ولدت غلاماً ثم ذهب بها إليه فرجمها.(٣٦)

وعن زيد بن علي عن أبيه عن جده قال: أتي عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها، فتلقاها علي فقال: ما بال هذه، قالوا أمر عمر برجمها فردها علي وقال: هذه سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها، ولعلك انتهرتها او أخفتها؟، قال: قد كان ذلك. قال: أو ما سمعت رسول الله (ص) قال: لا حدَّ على **معترف بعد بلاء**، انه من قيد او حبس او تهدد فلا إقرار له فخُلّي سبيلها.(٣٧)

وعن أبي ظبيان قال: شهدت عمر بن الخطاب (ره) أتي بأمرأة قد زنت فأمر برجمها فذهبوا بها ليرجموها، فلقيهم علي فقال: ما لهذه؟ قالوا زنت فأمر عمر برجمها، فانتزعها علي من أيديهم، فردهم، فرجعوا الى عمر فقالوا ردنا علي قال: ما فعل هذا علي إلا لشيء فأرسل اليه فجاءه، فقال: ما لك رددت هؤلاء؟ قال: أما سمعت رسول الله (ص) يقول: «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى

يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المبتلى حتى يعقل؟» فقال: بلى. فقال: هذه مبتلاة بني فلان، فلعله أتاها وهو بها، فقال عمر: لا أدري: أنا أدري، فترك رجمها.(٣٨)

تصنيف دور علي (ع)

إن هذا الدور الذي لعبه علي بن أبي طالب (ع) طيلة عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ره) والذي يستند الى ما تمتع به من شخصية تتميز بكل ما يجب أن يتميز به القاضي، من سعة أفق وعلم ودراية بأصول التقاضي وبالفقه وبكتاب الله وسنة نبيه محمد (ص)، هو دور المرجع الأعلى في القضاء، الذي له سلطة فوق سلطة الخليفة الذي يقر له دائماً بهذه المرجعية ولا يمنعه شغله لا على منصب في دولة الإسلام من أن ينتقل بنفسه الى حيث يكون علي ليعرض عليه قضية أشكلت عليه او أدرك أنه ليس بمستطاعه إصدار الحكم الصحيح فيها، فيطلب اليه أن يصدر حكمه فيها.

وعندما كان عمر (ره) يصدر أحكاماً في قضايا معينة وهو يظن أنه فصل فيها وفقاً لكتاب الله وسنة نبيه محمد (ص)، كان علي (ع) يملك سلطة التدخل ووقف تنفيذ الحكم الصادر عن الخليفة. ثم تعاد القضية الى المناقشة ليدلي فيها علي برأيه وقضائه. وليكون ما يحكم به علي (ع) هو الحكم النافذ. ولم يكن عمر بن الخطاب وهو الخليفة يجد أية غضاضة في أن يتدخل علي (ع) لنقض أحكامه وتغييرها.

ولم يُنكر عمر بن الخطاب (رض) دور علي بن أبي طالب ومكانته وكان يصرح دائماً بفضله وعلمه ومكانته.

الخاتمة

هذا بحث متواضع أردت به أن أبين مكانة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عند أصحاب رسول الله (ص). والدور الكبير الذي لعبه على عهد الخليفة

عمر بن الخطاب. وهو الدور الذي نستطيع أن نشبهه بالدور الذي تلعبه المحاكم العليا في أيامنا هذه او محاكم التمييز، فإذا شئنا أن نصف الدور القضائي لعلي بن أبي طالب (ع) بأنه دور المرجع القضائي الأعلى في الدولة الاسلامية. فإذا قضى الآخرون فإنه يملك أن يراجع أحكامهم، وأن يصدر حكمه الذي يصبح حكماً مبرما بمجرد أن يصدره، إذ أنه يملك قدرة عظيمة على تعليق الأحكام وبيان الأوجه التي استند اليها والأدلة من الكتاب والسنة.

ولو لم يكن علي (ع) يحوز الثقة الكاملة بدينه وعلمه وقضائه لما احتل هذه المكانة العالية.

ولا يفوتنا هنا الإشارة الى الفتاوى التي كان يصدرها أمير المؤمنين فقد كانت فتواه لا تقل إصابة ودقة عن قضائه.

نعم لقد اختلفوا حول الخلافة ولمن ينبغي أن تكون، وقد لعبت عوامل كثيرة دورها في إبعاد علي (ع) عن منصب الخلافة طيلة ثلاثة عهود، منها عوامل متعلقة بذاته، ومنها ما هو متعلق بتأريخه لا سيما بلاؤه في المشركين مع رسول الله (ص)، ومنها ما هو عائد الى ما كان سائداً قبل الإسلام، وهناك امور أخرى لا مجال لذكرها، لكنهم اتفقوا جميعاً على أن علياً (ع) هو الأعلم والأتقى والأشجع والأقضى، وأنه مرجع لا غنى عنه لأمة محمد (ص)، وأنه صاحب خصال حميدة وتاريخ وسبق في الإسلام (ع).

ورغم أن علياً (ع) لم يكن راضياً عن تولي سواه لمنصب الخلافة إلا أنه كان يرى أن الإسلام هو الأصل، وأن الأهمية هي في الامة وحفظ دينها، لذلك تراه عندما يتهدد خطر الردة الإسلام يسارع لإعطاء البيعة، والمساهمة في درء الخطر عن دولة الإسلام وأمته ودينه. وتراه خير وزير ومعين ومشير لمن سبقه من الخلفاء، لا يبخل عليهم برأي ولا بعلم ولا بقضاء ولا بنصيحة. كنصيحته لعمر بن الخطاب (رض) بأن لا يذهب بنفسه لحرب الروم، وأن يبقى في المدينة.

إن الرعيل الأول قد عرفوا كيف يتعاملون ويلتقون ويحصنون الإسلام

ويحمونه ويوصلونه إلينا إسلاماً محمدياً أصيلاً، ولو اقتضى الأمر منهم بذل الدماء والنفوس والأرواح. إن أهل بيت النبي أئمة هذه الأمة دون منازع ولكنهم ما حملوا سلاحاً ولا شقوا عصا الطاعة على خليفة إلا عندما انتهكت حرمات الله واستخف بدين الله فخرجوا ليحموا دين الله بأرواحهم وأريقت دماؤهم.

الهوامش

١ - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

٢ - سورة التوبة، الآية ٢٤.

٣ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٤ - سورة التوبة، الآية ١٢٨.

٥ - سورة الفتح، الآية ٢٩.

٦ - سورة آل عمران، الآية ٣١.

٧ - سورة الشورى، الآية ٢٣.

٨ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، ص ١٨.

٩ - المصدر السابق، ص ١٨.

١٠ - المصدر السابق، ص ١٨.

١١ - عارضة الأحوذي، شرح صحيح الترمذي، باب مناقب علي، ج١٣ ص ١٧٥. وفي صحيح مسلم، ج١٥، ص ١٦٩.

١٢ - المصدر السابق نفسه، ج١٣، ص ١٦٤.

١٣ - صحيح مسلم، ج١٥، ص ١٧٣.

١٤ - ذخائر العقبى، ص ٦٢.

١٥ - المصدر السابق ص ٦٦.

١٦ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، مجد الدين احمد بن عبدالله الطبري، ص ٨٣.

١٧ - عارضة الاحوذي بشرح صحيح الترمذي، ج١٣، ص ١٧١.

١٨ - ذخائر العقبى، ص ٧٨.

١٩ - نفس المصدر، ص ٧٩.

٢٠ - ذخائر العقبى، ص ٧٨.

٢١ - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ص ١٦٥ «أبواب المناقب» للإمام الحافظ ابن العربي المالكي.

٢٢ - المصدر السابق، ج١٣، ص ١٧١ «أبواب المناقب».

٢٣ - المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٧ «ابواب المناقب».

٢٤ - ذخائر العقبى، ص ٨٣.

٢٥ - نفس المصدر، ص ٨٣.

٢٦ - نفس المصدر، ص ٨٣.

٢٧ - الزبية: حفرة تحفر ليقع فيها الأسد فيتم اصطياده.

٢٨ - أعيان الشيعة الجزء الثاني ص ١٢٢، للإمام السيد محسن الأمين.

٢٩ - قضاء الإمام علي، لعلي بن محمد دخيل، ص ٤٤.

٣٠ - قضاء الإمام علي، علي محمد دخيل، ص ٤٣.

٣١ - راجع كتاب ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى لمحب الدين أحمد بن عبدالله الطبرى، ص ٨٣.

٣٢ - أعيان الشيعة، ج٢، ص ١٧٩.

٣٣ - المصدر السابق، ج٢ ص ١٨٠.

٣٤ - ذخائر العقبى، ص ٨٢.

٣٥ - كتاب أعيان الشيعة، ج٢ ص ١٧٩.

٣٦ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٨٠ - ٨١.

٣٧ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٨٠ - ٨١.

٣٨ - المرجع نفسه.